

الباب الرابع

نظرية العمران إسلامية الأسس والتكوين

- تمهيد
- الأسس الإسلامية
- أعمار الدول
- نظام الحكم
- ابن خلدون يتبنى كتاب طاهر
ابن الحسين
- ويتبنى رسالة عمر في القضاء
- التزام الشريعة
- ملامح المجتمع الخلدوني إسلامية
- نظرية العمران إسلامية المبتدأ
والمنتهى

obeikandi.com

نظرية العمران الإسلامية الأسس والتكوين

(١)

تمهيد :

حفلت نظرية العمران بالكثير من الاهتمام عند من درسوا ابن خلدون ، يستوى في ذلك العلماء العرب والباحثون من غير العرب ، وذهبوا في توصيفها مذاهب شتى ، واختلفوا في أصولها ومقاصدها وغاياتها اختلافاً شديداً حتى إن كثيراً منهم كانوا في مواقفهم طرفي نقيض . لقد نسي أكثر هؤلاء الباحثين أو غفلوا عن حقيقة شخصية ابن خلدون وتكوينه العلمي وبنيته الثقافية . إن ابن خلدون واحد من المع علماء المسلمين في علوم الإسلام ، فهو فقيه ، أصولي ، محدث ، مؤرخ ، لغوي ، أديب ، وقد ولي مناصب دينية إبان وجوده في المغرب حسباً مر بنا في مستهل هذا البحث ، وولى في مصر مناصب دينية رفيعة ، فقد كان شيخ قضاة المالكية ، والقضاء كان آن ذاك - وحسبها هو معروف - منصباً دينياً ، كما أنه كان يقوم بالتدريس في الأزهر وغيره من المدارس الشهيرة في القاهرة ، فهل كان يدرس فيها الفيزياء والكيمياء أو الجبر وحساب المثلثات ؟! لقد كان يدرس بطبيعة الحال العلوم الدينية من تفسير وفقه وحديث وتاريخ . ولكننا مع ذلك نجد الكثرة الساحقة ممن كتبوا عن المفكر الكبير قد أغفلوا أثر هذه النشأة وعمق هذا التكوين الإسلامي الخالص في فكره ومنجزاته ، وذهبوا يربطون فكره إيجاباً حيناً وسلباً حيناً آخر بأفكار أعلام أوربيين متأخرين ، مثل ميكياڤلي ولينين وماركس وشنجلر ، أو قدامى من أمثال أرسطو وأفلاطون طبقاً لما قدمناه تفصيلاً في الفصل الذي خصصناه لعلماء الغرب وابن خلدون .

فأما العلماء العرب فإن من أهم الكتب التى ظهرت لهم عن ابن خلدون فى الثالث الأول من هذا القرن كتاب « نظرية ابن خلدون التاريخية الاجتماعية »^(١) لكامل عياد ، وكتاب « ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى »^(٢) للمحمد عبد الله عنان ، وعبد الرحمن بن خلدون للدكتور على عبد الواحد وافي ، ودراسات عن ابن خلدون لساطع الحصرى . وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطلح حسين ، وهى رسالة كتبت بالفرنسية تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة السوربون سنة ١٩١٧ .

إن كامل عياد يرى - بحق - أن ابن خلدون هو الذى ابتدع نظرية علم الاجتماع الإنسانى كاملة ، وبعبارة أخرى هو مبتكر أول معنى علمى تاريخى اجتماعى^(٣) . هذا ولم ينكر المؤلف صلة ابن خلدون فى حقل الفلسفة وتكوين التاريخ بالأفذاذ من علماء الإسلام ومفكره من أمثال مسكويه والبيرونى وابن سينا وابن رشد ، ولكنه - أى عياد - ينفى أية صلة بين ابن خلدون وحجة الإسلام الغزالى ؛ لأن الغزالى يفصل بين العقيدة والعلم ؛ لأنه يرفض العلم ، وأما ابن خلدون فإنه يفصل بين العقيدة والعلم ؛ لأنه يعطى العلم ذاتية مستقلة^(٤) .

وإذا كان المجال هنا لا يتسع لمناقشة هذا رأى ، فإننا نود الإشارة إلى أن العلم الذى رفضه الغزالى هو علوم الحكمة وحدها ، وهى الفلسفة والمنطق ، والشئ نفسه فعله ابن خلدون فى حديث طويل ضمنه فصلاً كاملاً من مقدمته ، هو الفصل الرابع والعشرون ، وجعل عنوانه « فى إبطال الفلسفة وفساد متحلها »^(٥) .

ومن الآراء التى تستوقف المرء وتلفت نظره ما ذكره الأستاذ عياد من أن ابن خلدون ارتفع فوق معتقداته الدينية وهو يحقق منجزاته الضخمة ، ويفصل عقيدته

(١) برلين ١٩٣٠ .

(٢) القاهرة ١٩٣٢ .

(٣) نظرية ابن خلدون التاريخية الاجتماعية ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٥) المقدمة ص ٥١٤ الطبعة الثالثة بيروت :

عن المعارف الدينية !!! وينبنى نظريته العلمية بطريقة فريدة على المادة التجريبية^(٦) ،
والحقيقة أن ابن خلدون لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل إنه لا يتأتى له فعل ذلك ، فإن
تدين أى إنسان لا يصرفه عن العلم ، ولا يوجد دين سماوى فيما أعلم يصادم العلم أو
يجافيه ، والإسلام بصفة خاصة لا يشجع على العلم وحسب ، وإنما يفرض على
المسلمين أن يتعلموا ، وإن رسول الله ﷺ يقول : « طلب العلم فريضة على كل
مسلم » ، ويحضر على الرحلة في طلب العلم مهما كانت بعيدة ، وذلك في قوله
ﷺ : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . وإنه من الواضح بمكان أن ذلك العلم
الذى يطلب بعيداً ولو كان في الصين ليس العلم الدينى ، ولكنه العلم بشقيه الدينى
والدنيوى . هذا ، ومن نافلة القول هنا أن الطريقة التجريبية التى أشار إليها المؤلف
لا تتنافى مع الإسلام . مادام ليس فيها شئ يحرمه الإسلام . أما كونه عمداً إلى التجريبية
فليس ذلك مما يتعارض مع عقيدة ابن خلدون أو عقيدة أى مسلم فى شئ .

وبالنسبة للأستاذ الدكتور طه حسين فإنه تابع ابن خلدون فى مقدمته فصلاً
فصلاً ، وأنكر عليه نظريته التاريخية ، واتهمه بأنه غفل عن تطبيقها على نفسه فى كتاب
العبر ، كما ناقشه فى شئ من الحدة فى أكثر نظرياته ، وخصوصاً فكرة العصبية
والأحكام التى أصدرها على العرب ، ولعل طه حسين هو أكثر من كتبوا عن
ابن خلدون قليلاً لشأنه ، وأقلهم حماساً لنظرياته ، وأشدهم تحريماً لشخصه وفكره .

وهناك بين دارسى ابن خلدون من عمداً إلى إجراء مقارنة بين فكره وبين
الماركسية وانتهى - وهذا أمر طبيعى - إلى أن نظرية ابن خلدون تفوق المادية التاريخية
الماركسية وهو ما فعله العالم ك . بريزيج^(٧) .

ويذهب المستشرق الإيطالى جابريل فى بحث عن ابن خلدون إلى التركيز على
فكرة العصبية - التى عزا المفكر المسلم إليها أموراً كثيرة فى نظرية العمران - ويقوم

(٦) نظرية ابن خلدون التاريخية ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٧) معجزة نمو الأبحاث التاريخية ص ٢٤ وما بعدها بريسلو ١٩٣٦ .

ببعض التحليلات التي تنتهى به إلى مفهوم خاص مفاده أن العصبية هى الروح الحزنى والطبقى^(٨) ، وربما كان فى هذا المفهوم الكثير من حقيقة المذهب الخلدونى فى العصبية .

وإن كثيراً من العلماء الفرنسيين قاموا كما هو معروف بدراسات موسعة عن ابن خلدون ، ومن بينهم فى الثلث الأول من هذا القرن الأستاذ كازانوف ، والأستاذ ج . بوتول الذى اهتم بالفلسفة الاجتماعية لابن خلدون ، وأفرد لها كتاباً انتهى فيه إلى عدة تصورات لا نرى فيها شيئاً جديداً ، فقد قرر أن كتاب المقدمة كان استجابة لمشاهداته التجريبية ، وأن مفاهيم ابن خلدون التاريخية والاجتماعية نابعة من فكره الأصيل .

كان ذلك استعراضاً سريعاً لاجتهادات بعض من كتبوا عن فكر ابن خلدون ، منهم العربى ، ومنهم أيضاً الألمانى والإيطالى والفرنسى ، ولا نكاد نجد فيما كتبوا شيئاً يتصل بالعنصر الأساسى فى فكر ابن خلدون ، وهو ثقافته الإسلامية ذات الآفاق الواسعة والأعماق البعيدة ، وكان عليهم من منطلق دقة البحث ومنهجية أن ينتهوا إلى ذلك ويتمثلوه فى كل خطوة يخطونها فى دراستهم لشخص ابن خلدون وفكره .

ولمزيد من الإيضاح فإننا نقرر أنه لم ينتبه من دارسى ابن خلدون إلى شخصيته الإسلامية وقيادته الدينية إلا لودفيج جمبلوفتش والمستشرق الكبير هاملتون جب ، الذى قرر صراحة أن ابن خلدون لم يكن مسلماً وحسب ، وإنما كان من كبار علماء الدين وأحد كبار فقهاء المالكية ، وأنه لم يضمن فكره رأياً واحداً لا يتفق منطقياً مع تعاليم الإسلام ، وأن جميع مفاهيمه إنما هى تطويع المجتمع وتطويره للمبادئ الدينية الإسلامية ، وأن التدهور الاقتصادى الذى حاول ابن خلدون أن يلفت إليه الأنظار ليس إلا نتيجة حتمية لاختلاف التطبيق السياسى مع متطلبات الشريعة الإسلامية^(٩) .

(٨) العقلية وفلسفة التاريخ عند ابن خلدون : نشرة الأكاديمية الملكية بتورينو ١٩٣٠ المجلد الخامس ص ٤٧٣ وما بعدها .

(٩) الأساس الإسلامى للنظرية السياسية لابن خلدون : مجلة مدرسة الدراسات الشرقية الجزء الأول من المجلد السابع ص ٢٣ وما بعدها .

غير أن الأستاذ جبّ يكاد يحصر تصوّره الإسلامي لفكر ابن خلدون في النظرية السياسية وحدها ، ولكن الواقع الذي نلمسه هو أن فكر ابن خلدون جميعه إسلامي ، وأن مجتمع العمران الذي أنشأ نظريته من خلاله هو مجتمع إسلامي من كل جوانبه ، سواء في ذلك نظام الحكم والإدارة والقضاء والمعاملات والعلم والتعليم والاقتصاد والسلوك العام ، وقد يكون لنا بعض التحفظ من الناحية الإسلامية على مبدأ العصبية الذي أولاه ابن خلدون كثيراً من الاهتمام..

(٢)

الأسس الإسلامية

إن الدولة ممثلة في حكومتها هي صاحبة المسؤولية في الحفاظ على أمن الناس ورفاهيتهم ، والمنوط بها النود عن الوطن والدفاع عن أراضيها ، والمكلفة السهر على هبة القانون وتنفيذ أحكامه ، وذلك بإشاعة العدل ودفع الظلم إلى غير ذلك من الوظائف الأخرى التي تضطلع بها الحكومات ، ولقد اتخذت أنظمة الحكم قديماً وحديثاً أشكالاً مختلفة وأنماطاً شتى ، وأخضعت المجتمعات التي تحكمها لمبادئها وأساليبها ، فهناك الحكومات الملكية والجمهورية والديمقراطية والاستبدادية والرأسمالية والشيوعية إلى غير ذلك من الأنماط الكثيرة المعروفة لدى المشتغلين بعلوم السياسة . ومن الأمور المسلم بها أن كثيراً من حكومات العصر الحديث تحمل الرعايا على الخضوع لنظمها حتى ولو كانت هذه النظم مرفوضة من الناس ، ولسنا هنا بسبيل ضرب الأمثلة لذلك ؛ لأن القارئ الخاص والعام يستطيع بغير جهد أن يستحضر لنفسه العشرات من الأنظمة التي ترفضها الأكثريات الساحقة من رعايا هذه الدولة أو تلك .

أعمار الدول

لقد أسلفنا الحديث ورصدنا هذا العنوان في الباب السابق كواحد من أعمدة نظرية العمران عند ابن خلدون ، ووافقناه على أن للدول أعماراً ، ولكننا لم نتفق معه في أن عمر كل دولة لا يعدو ثلاثة أجيال ، وكان الأحرى به أن يستعمل مصطلح « مراحل » بدلاً من « أجيال » وبذلك يكون قد حقق الصواب .

وإذا كان ابن خلدون قد ضرب أمثالا لأعمار الدول وعيّنهُ على بعض الدول مثل المرابطين والموحدين والمرينيين في المغرب ، وملوك الطوائف في الأندلس ، والطورونيين والإخشيديين والأيوبيين في مصر ، والحمدانيين في حلب ، والبويهيين في العراق والعراق العجمي ، فإن نظرية أعمار الدول نفسها نظرية قرآنية ، استقى ابن خلدون فكرتها وأساسها من القرآن الكريم الذي كان يحفظه ويفقه شرعته ويعي أحكامه .

إن القرآن الكريم ينص في آيات كثيرة على أن للدول أعماراً ينتهي كيانها بنهايتها ثم تخلفها دول أخرى أكثر نظاماً وأشد قوة وأوفر صلاحاً ، فإله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِكَ ظُلُمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾^(٥)

والقرية هنا - وفي آيات أخرى القرى - هي الدولة أو الدول ، والقرية الظالمة هنا هي الدولة الفاسدة ، فالظلم هو أشد ألوان الفساد .

ويشدد الكتاب العزيز على حتمية نهاية أعمار الدول ، وعلى أن للدول أعماراً كأعمار الإنسان وذلك في القول الحكيم :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَسْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾^(٦)

والشطر الأول من هذه الآية الكريمة متعلق بالرسول ﷺ وكونه لا يملك من أمر نفسه شيئاً من خير أو شر فضلاً عن أن يملك شيئاً من أمر الآخرين ، وهو قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾^(٧)

(٥) سورة الأنبياء الآية ١١ .

(٦) سورة يونس الآية ٤٩ .

وإذن فمسألة أعمار الدول هي - في ظاهرها وباطنها وفي عرضها وجوهرها - نظرية قرآنية استمدها ابن خلدون من الكتاب العزيز تماماً ، مثلما استمد كثيراً من أفكاره طبقاً لما هو موضح في كثير من فصول هذا الكتاب .

تجىء بعد ذلك فكرة ابن خلدون في تحديد عمر الدولة بثلاثة أجيال ، وقد كان الأصوب أن يحدد عمر الدولة بثلاث مراحل أو ثلاثة أطوار ، وهو ما قد أوضحه القرآن الكريم ، ولعل ابن خلدون قد قصد إلى ذلك ولكن التعبير قد خانته أو تخلى عنه بدافع السرعة ، فقد كتب ابن خلدون المقدمة - طبقاً لما هو معروف - في ستة شهور ، وهو زمن قصير بالقياس إلى هذا العمل الفكرى الباهر الكبير .

إن المراحل الثلاث أو الأطوار الثلاثة للدولة جاءت في الكتاب العزيز في عدد من السياقات ، فالمرحلة الأولى هي نشأة الدولة أو مولدها ، والدولة تولد قوية ذات صلاح على أطلال دولة فاسدة ، وتظل الدولة الصالحة على قيد الحياة مادام صلاحها واستمر عدها ، وعن هذه المرحلة الأولى يقول الكتاب العزيز على لسان موسى عليه السلام : ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(١)

فهلاك العدو في الآية الكرية يعنى هلاك دولته ، والاستخلاف في الارض يكون بميلاد دولة مكان دولة العدو .

والمرحلة الثانية في حياة الدولة وعمرها هي مرحلة القوة والتماء ورغد العيش ولين الحياة مع الحفاظ على نعم الله والامتنال لأوامره ونواهيه ، وهذه المرحلة تستمد من الآية الكريمة : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٢)

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٩ .

(٢) سورة النحل الآية ١١٢ .

إن الدولة هنا كانت في مرحلة الاستقرار والأمن والازدهار ، وهي المرحلة الثانية أو الطور الثاني من أعمار الدول ، فلما انصرفت عن النعمة المتمثلة في القوة ورغد العيش ، ومالت إلى البطر والظلم انتهى الأمر بها إلى الانحلال والضياع اللذين هما العامل الأصيل في المرحلة الثالثة ، ويتمثل ذلك في الآية الكريمة :

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتَهُم لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۖ﴾^(٥٩)

فلقد أكد القرآن الكريم مهلك الدولة أى نهايتها بموعده لا يتعثر ولا يتخلف ، وارتبط هلاك الدولة ونهايتها بفسادها المتمثل في الظلم الذى يقتضيه حكامها أو يمارسه رعاياها .

وأما مبدأ نهاية عمر الدولة فيتمثل في آيات أخرى من آيات الكتاب العزيز ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا يَمُنُّ قَرِيبٌ إِلَّا أَنْ يُهْلَكُوا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۖ﴾^(٦٠)

على هذه الأسس القرآنية يكون للدول أعمار مثل أعمار البشر ، وهو ما سجله ابن خلدون ، وعلى هذه الأسس القرآنية أيضاً تنقسم أعمار الدول إلى ثلاثة أطوار - وليس ثلاثة أجيال - هي طور النشأة والميلاد ، وطور القوة والارتقاء والسيطرة والازدهار ، وطور التفتت والانحيار والسقوط .

هذا ولا يكون ميلاد الدول أو سقوطها إلا بأسباب ومسيبات في نطاق العدل الإلهي ، فالله سبحانه لا يهلك القرى - أى الدول - إلا بذنوب حكامها وانحلال سكانها وإشاعة الظلم بينهم وسريان الفساد فيهم فيقول سبحانه :

(٥٩) سورة الكهف الآية ٥٩ .

(٦٠) سورة الإسراء الآية ٥٨ .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾^(٩)
 ويقول سبحانه في سورة أخرى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ
 يَبْعَثَ فِي أُمِّهَارِ سُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ
 إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾^(١٠) صدق الله العظيم

(٤)

نظام الحكم

إن نظرية العمران عند ابن خلدون بكل جزئياتها تستمد عناصرها من المبادئ الإسلامية ، وليس ذلك بالأمر الغريب ؛ لأن ابن خلدون - حسبنا ذكرنا - عالم بارز من علماء المسلمين ، ولولا أن مصطلح رجل الدين غير موجود في الإسلام لقلنا إن ابن خلدون واحد من أبرز رجال الدين الإسلامي في عصره ، ذاك إن لم يكن أبرزهم جميعاً ؛ ومن ثم فإن نظام العمران الإنساني كله يقوم عنده على أساس ديني إسلامي . فإذا ما كان الحديث عن الشئون السياسية بمفهومها العلماني فإنه يقرر أن أحكام السياسة تضطلع بمصالح الدنيا فقط ، وأما مقصود الشارع بالناس فهو صلاح آخرتهم مع صلاح دنياهم « فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم »^(١١) .

ويقرر ابن خلدون في صراحة كاملة وبيان واضح أن الحكومة التي يجب أن

(٩) سورة هود الآية ١١٧ .

(١٠) سورة القصص الآية ٥٩ .

(١١) المقدمة ص ١٩١ .

تسوس شئون مجتمعه العمراني هي الحكومة الإسلامية ، ويفرد لذلك فصلاً من أهم فصول المقدمة جعل له عنواناً مثيراً هو « أن العمران البشري لابد له من سياسة ينتظم بها أمره » وهذا الفصل هو الركيزة الأساسية لحقيقة الحكومة الإسلامية عند ابن خلدون ، وفيه ينص على أنه لابد للناس في الاجتماع البشري أو العمران من وازع حاكم يرجعون إليه ، وأن حكمهم فيه ينبغي أن يستند إلى شرع منزل من عند الله ، يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب الذي جاء به مبلغه ، ويضرب ابن خلدون أمثلة لحكومات وثنية كالفرس ، وحكومات بشرية مثالية مفترضة مثل المدن الفاضلة عند الفلاسفة ، وينحيا جانباً لكي يلتفت إلى تقرير الحكومة الإسلامية قائلاً : « وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملّة ولعهد الخلافة ؛ لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة ، وأحكام الملك مندرجة فيها »^(١١) .

ويفرق ابن خلدون بين الملك الطبيعي أو العلماني بلغة عصرنا وبين الخلافة فيقول : إن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والملك السياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقل في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار ، وأما الخلافة فأمرها أعمق صلاحاً ، وهدفها أكثر فعالية ؛ لأنها تستهدف صلاح الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، « وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط ، فإنها كلها عبث وباطل ، إذ غايتها الموت والفناء ، والله يقول : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ »^(١٢)

ويستطرد ابن خلدون في تبني مبدأ الحكومة الإسلامية واستنكار الملك الدنيوي فيقرر أن الشرائع السماوية جاءت بحمل الناس على الخضوع لأحكامها ، من عبادة ومعاملة ، وحتى الملك الذي هو طبيعي للمجتمع الإنساني فقد أجرته على منهاج الدين ليكون الجميع محوطةً بنظر الشارع ، فما كان بمقتضى القهر والغلبة فهو ظلم وعدوان ، وهو لذلك مذموم ، وما كان بمقتضى السياسة وأحكامها فهو مذموم أيضاً ؛ لأنه نظر

(١١) المقدمة ص ٣٠٣ .

(١٢) المقدمة ص ١٩٠ . والآية ١١٥ من سورة المؤمنون .

بغير نور الله ، وهنا يتمثل ابن خلدون بالآية الكريمة :
﴿ وَمَنْ يَسْعَلِ اللَّهَ فَالْمُتَوَكِّلُ ﴾ (١٣) .

ويتبع ابن خلدون استشهاد القرآن بتقرير أن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم ، وأن أعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم وغيره ، واستجابة لقول الرسول العظيم : « إنما هي أعمالكم ترد عليكم » .

وينتهي ابن خلدون في توصيف الخلافة على هذا النحو : « والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، وإذا أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا » (١٤) .

هكذا حدد ابن خلدون شكل الحكومة التي تمسوس العمران الإنساني ، وحصر هذا الشكل في الإطار الإسلامى الصريح .

ويذهب ابن خلدون إلى أن الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة ومنعة ، وتضمن لها الغلبة في الحروب والنصر في الفتوح ، ويضرب لذلك أمثلة عديدة مثل الفتوح الإسلامية الأولى ، وفيها تغلب المسلمون ولم يزد عدد جيشهم على بضعة وثلاثين ألفاً في معركة القادسية على جحافل الفرس التي جاوز عددها مائة وعشرين ألفاً من الجنود المدربين ، والشيء نفسه حدث في معركة اليرموك ، فقد انتصر جيش المسلمين بنفس العدد على جميع جيوش الروم بقيادة هرقل ، وقد زاد عددها على أربعمئة ألف مقاتل . وفي المحيط الإسلامى حدث شيء من ذلك في المغرب ، فقد كانت قبيلة زنانة أكثر بداءة من المصامدة وأشد توحشاً - طبقاً لعبارة ابن خلدون - وكان للمصامدة

(١٣) سورة النور الآية ٤٠ .

(١٤) المقدمة ص ١٩١ .

الدعوة الدينية باتباع الهدى ، فلبسوا صبغتها - أى الصبغة الدينية - فتضاعفت قوة عصبيتهم فغلبوا زنادة^(١٥) .

(٥)

ابن خلدون يتبنى كتاب طاهر بن الحسين

وابن خلدون حين يقرر وجوب وجود الحكومة الإسلامية على رأس المجتمع الإنساني ، يعتمد إلى تفاصيل تطبيق الأحكام فيها ، فينثر كنانة مدخراته الفكرية ويختار منها كتاب طاهر بن الحسين إلى ولده عبد الله حين ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما ، وهو كتاب مشهور من حيث كونه برنامجاً إسلامياً كاملاً في شئون الحكم ، وضع فيه طاهر بن الحسين كل ما وعاه عقله من الأحكام الإسلامية التطبيقية المستمدة من الكتاب والسنة والسلوك الرفيع ، وما ينبغي أن يلتزمه الحاكم من تطبيق في الإدارة والقضاء والمال والجيش والصحة والعمارة والتعامل مع المرعوسين بخاصة وجمهرة الناس بعامة ، وكتاب طاهر بن الحسين إسلامى الأصول ، أخلاقى النزعة ، شرعى العناصر ، سلوكى التوجيه ، أو كما يقول ابن خلدون : « وصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانته من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية ، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة »^(١٦) وتلك مقتطفات منه :

★ عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته عز وجل ، ومزايلة سخطه ، واحفظ رعبتك في الليل والنهار ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسئول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل ، وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه ، فإن الله

(١٥) المقدمة ص ١٥٨ .

(١٦) المقدمة ص ٣٠٤ وما بعدها .

سبحانه قد أحسن إليك ، وأوجب الرأفة عليك ، بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وأزملك العدل فيهم ، والقيام بحقه وحدوده عليهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسريهم ، وإدخال الراحة عليهم .

★ وليكن أول ما تلزم به نفسك ، وتنسب إليه فعلك ، المواظبة على ما فرض الله عز وجل من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك ، وتوابعها على سننها ، من إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها ، ورتل في قراءتك ، وتمكن من ركوعك وسجودك وتشهّدك ، ولتصرف فيه رأيك ونيتك ، واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك ، وادأب عليها ، فإنها كما قال الله عز وجل : « تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » ، ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله ﷺ والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده .

★ ولا تميلنّ عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد ، وآثر الفقه وأهله ، والدين وحملة ، وكتاب الله عز وجل والعاملين به ؛ فإن أفضل ما يترزين به المرء الفقه في الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عز وجل .

★ وعليك بالاعتقاد في الأمور كلها ، فليس شيء أئين نفعاً ولا أجمع فضلاً منه ، والقصد داعية إلى الرشd ، والرشd دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة ، وقوام الدين والسنة الهادية بالاعتقاد ، وكذا في دنياك كلها ، ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعام الرشd والإعانة والاستكثار من البر والسعى له إذا كان يطلب لوجه الله تعالى ومرضاته .

★ ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ؛ فإن إيقاع التهم بالأبرياء والظنون السيئة بهم آثم إنهم ، فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واضرد عنك سوء الظن بهم ، وارفضه فيهم ، يُعِنِّكَ ذلك على استطاعتهم ورياضتهم .

★ تفرّد بتقويم نفسك تفرّد من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومَجْزِيٌّ بما أحسن ،

ومؤاخذ بما أساء ، فإن الله عز وجل جعل الدين حرزاً وعزاً ، ورفع من اتبعه وعززه ، واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى ، وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه .

★ إذا عاهدت عهداً فأوف به ، وإذا وعدت خيراً فأجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وأغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغض أهل الخيعة ؛ فإن أول فساد أمورك في عاجلها وآجلها تقريب الكدوب والجرأة على الكذب .

★ لتكن ذخائرُك وكنوزك التي تدخر وتكتر : البر والتقوى ، واستصلاح الرعية وعمارَة بلادهم ، والتفقد لأموالهم ، والحفظ لدمائهم ، والإغاثة للمهوفهم ، واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو ، وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذى عنهم ، نمت وزكت ، وصلحت بها العامة ، وترتبت بها الولاية ، وطاب بها الزمان .

★ لا تحقرن ذنباً ، ولا تماثلن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصلن كفوراً ، ولا تدهنن عدواً ، ولا تصدقن ثمناً ، ولا تأمنن غداراً ، ولا توالين فاسقاً ، ولا تتبعن غلوياً ، ولا تحمدن مرائياً ، ولا تحقرن إنساناً ، ولا تردن سائلاً فقيراً ، ولا تحسنن باطلاً ، ولا تلاحظن مضحكاً ، ولا تخلفن وعداً ، ولا تزهون فخراً ، ولا تظهرن غضباً ، ولا تباينن رجاء ، ولا تمشين مرحاً ، ولا تفرطن في طلب الآخرة .

★ خذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تدخلن في مشورتك أهل الرفه والبخل ، ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن ضررهم أكثر من نفعهم ، وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت به أمر رعيك من الشح ، واعلم أنك إذا كنت حريصاً (أى بخيلاً) كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلاً ، فإن رعيك إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم ، وترك الجور عليهم .

★ تفقد الجند في دواوينهم ومكانتهم ، وأدر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم ، فيقوى لك أمرهم ، وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً .

★ اعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس فوقه شيء من الأمور ؛ لأنه ميزان الله الذي تعدل عليه أحوال الناس في الأرض ، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية ، وتأمين السبل ، ويتنصف المظلوم ، وتأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة .

★ أنصف الخصم ، وقف عند الشبهة ، وأبلغ في الحجة ، ولا يأخذك في أحد من رعيته محابة ولا مجاملة ولا لومة لائم ، وثبت ، وثأن ، وراقب ، وانظر ، وتفكر ، وتدبر ، واعتبر ، وتواضع لربك ، وارفق بجميع الرعية ، وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك الدماء ؛ فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم فلا تبغ انتهاكاً لها بغير حقها .

★ اعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً ، وإنما سُمي أهل عملك رعيته لأنك راعيهم وقيمهم ، فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ، ونفذه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم ، واستعمل عليهم أولى الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعمل بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم في الرزق .

★ تعاهد ذوى البأساء وأيتامهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداء بأمر المؤمنين - أعزه الله تعالى - في العطف عليهم والصلة لهم ؛ ليصلح الله بذلك عيشتهم ، ويرزقك به بركة وزيادة ، وأجر للأضرء من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دُوراً تأويهم ، وقوَّاماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم (يعنى بما يشتهون) . ما لم يؤد ذلك إلى إسراف في بيت المال .

★ اعتصم في أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وحالفه ودعا إلى سخط الله عز وجل ، واعرف ما يجمع عمالك من الأموال وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم .

★ ليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رِضاً ، ولدينه نظاماً ، ولأهله عزاً وتمكيناً ، وللملة والذمة عدلاً وصلاحاً .

فهذه فقرات مجتزأة من الكتاب الذى اختاره ابن خلدون كنموذج لأساس الحكم فى المجتمع الإنسانى الذى ابتكر نظريته ، وإذا كانت هذه الفقرات التى اجترأناها لا تغنى - على الرغم من وضوح بنيتها الإسلامية - عن قراءة الكتاب جميعه ، فإننا نورد فيما يلى أهم الأسس وأوضح العناصر التى اشتمل عليها :

● الإيمان بالله وأداء الفرائض على أكمل وجه والقيام بحق الله والسير على سنة رسوله ﷺ ، وليكن العمل لله عز وجل برجاء الثواب . وشكر الله على نعمه .

● الملك لله يؤتیه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، فإذا كفر صاحب السلطان نزع منه الملك .

● الاعتصام بالله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه وكتابه ، واجتناب البدع والشهوات .

● العدل بين الناس ، وعدم الميل عنه لقريب أو بعيد ، وإقامة الحدود فى أصحاب الجرائم ، وحسن الظن بالأصحاب ، وعدم اتهام الأبرياء .

● إن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس فوقه شىء من الأمور ؛ لأنه ميزان الله الذى تعدل عليه أحوال الناس فى الأرض ، وبتحقيق العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية .

- تفقد الجند في دواوينهم وأمكتهم وإدراار أرزاقهم والتوسعة عليهم في معاشهم تذهب فاقتهم ، فتقوى عزائمهم وتزيد طاعتهم .
- استعمال أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم ، والعمل بالسياسة والعفاف .
- الاقتصاد فى الأمور كلها .
- التزام الشورى ممثلة فى الأخذ من أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، واستبعاد أهل الرفه والبخل من المشورة .
- احترام العهود ، وإنجاز الوعود ، والابتعاد عن الكذب .
- توظيف الأموال فى عمارة الإسلام .
- إنشاء دور لمرضى المسلمين (مستشفيات ومصحات) وتعيين أطباء يعالجون أسقامهم ، وتخصيص خدم يقومون على راحتهم .
- تعهد ذوى البأساء (المعوقين وأصحاب العاهات والضعفاء) والأيتام والأرامل بجعل رواتب لهم من بيت المال .
- الاهتمام بالرعية ، والنظر فى حوائجهم ، ومواساة الضعفاء ، وصلة ذوى الأرحام .
- اتقاء الشح فإنه أول ما عصى الإنسان به ربه .
- التفقه فى الدين ، وطلب العلم ، ومصاحبة العلماء ، ومرافقة أولياء الله .
- مداومة الأعمال الصالحة والاستكثار من البر .

يقول ابن خلدون بعد إيراد هذا الكتاب فى ثوب من الإعجاب به والاستحسان له : « حُدث الإخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره ، وأعجب به الناس ، اتصل خبره بالمأمون ، فلما قرئ عليه قال : ما أبقى أبو الطيب - يعنى طاهر ابن الحسين - شيئاً من أمور الدنيا والدين ، والتدبير والرأى والسياسة ، وصلاح الملك

والرعية ، وحفظ السلطان ، وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به ، ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال في النواحي ليقتنوا به ، ويعملوا بما فيه ، ثم يعقب ابن خلدون على الخطاب ومحتواه قائلاً : « هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة والله أعلم »^(١٧) .

إن الأمر الواضح هنا أن ابن خلدون قد أورد هذا الكتاب في الفصل الخاص بأن العمران لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره ، وأنه قد حدد الخلافة الإسلامية نظاماً للحكم ، ثم جاء بعد ذلك بالكتاب مفصلاً ومعقباً عليه بما قد سلف من إعجاب واستحسان ، كل ذلك ينتهي بنا بما لا يدع مجالاً للشك إلى أن نظام الحكم الذي اختاره ابن خلدون للعمران الإنساني نظام إسلامي القاعدة والمنبع ، شرعى المبنى والتطبيق .

كان ذلك منهج الحكم في المجتمع الإنساني الذى أرسى ابن خلدون قواعده ، وهو منهج يتسم بالشمول ، ولما كان القضاء هو حجر الزاوية في استقرار أمن المجتمعات ، فإن طاهر بن الحسين قد ألح على ولده في دقة تطبيقه والتزام العدل في تنفيذ أحكامه ، وذلك في عبارته البليغة « إن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس فوقه شيء من الأمور » .

ولكن ابن خلدون يخصص القضاء في موضع آخر من المقدمة بمزيد من الاهتمام ؛ لأنه طبقاً لعبارته « من الوظائف الداخلة تحت الخلافة ؛ لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعى وقطعاً للتنازع ، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقة من الكتاب والسنة »^(١٨) .

فالقضاء وظيفة دينية عند ابن خلدون ، ومصادر أحكامه ووسائل تطبيقه إسلامية محضة ، ولقد تحدث ابن خلدون عن القضاء في إيجاز ، حيث أحال من يريد الاستزادة من أحكامه على « كتب الفقه » وخصوصاً كتب « الأحكام السلطانية » وإن كان

(١٧) المقدمة ص ٣١١ .

(١٨) المقدمة ص ٢٢٠ .

أشار إلى بعض سلطات القاضى ، مثل النظر فى أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه ، والنظر فى وصايا المسلمين وأوقافهم ، وتزويج الأيتام عند فقد الأولياء ، والنظر فى مصالح الطرقات والأبنية ، وتصفح الشهود والأمناء والنواب ، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح^(١٩) ، ويذكر ابن خلدون أنه كان يعهد إلى بعض القضاة بقيادة الجهاد فى عساكر الصوائف ، فقد كان يحيى بن أكرم يخرج بالصائفة إلى أرض الروم أيام المأمون ، وكذلك كان يفعل منذر بن سعد البلوطى فى أيام عبدالرحمن الناصر .

(٦)

... ويتبنى رسالة عمر فى القضاء

ومثلما اختار ابن خلدون رسالة طاهر بن الحسين إلى ولده عبدالله كمنهج يحتذى فى الحكومة الإسلامية ، فإنه اختار رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى كمنهج أمثل للقضاء فى الإسلام ، وهى رسالة نفيسة حرص كثير من المفكرين المسلمين الكبار على تزوين بعض كتبهم بها ، من أمثال الجاحظ فى البيان والتبيين ، وابن قتيبة فى عيون الأخبار ، وابن عبدربه فى العقد الفريد ، والماوردى فى الأحكام السلطانية وغيرهم ، وها نحن نثبتها فى هذا المقام تأسيماً بهم ، فضلاً عن نفاستها وتفرداها فى جمع أحكام القضاء ودقة توجيه القضاء^(٢٠) :

« أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ؛ فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آسى بين الناس بوجهك وعدلك ومجملتك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا يئأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حرم حلالاً ، ولا

(١٩) المقدمة ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢٠) المقدمة ص ٢٢١ .

يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعَ اليوم فيه عقلك وَهْدَيْتَ فيه إلى رشدك أن تراجع فيه الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى فى الباطل ، أَلْفَهَمَ الفهم فيما تلجج في صدرك مما ليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله ، ثم اعرف الأمثال والأشياء ، فقس الأمور بنظائرها ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بَيِّنَةً ، أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بَيِّنَتُهُ أَخَذْتَ له بحقه ، وإلا استحلت عليه القضية ؛ فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حد ، أو مُجَرَّباً عليه شهادة زور ، أو ظَنيماً فى نَسَبٍ أو وَلَآءٍ ؛ فإن الله سبحانه وتعالى تولى منكم السرائر ، وَدَرَأَ بالبينات والأيمان ، وإياك والغلق والضرر والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق ليعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلَّق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه ، شانه الله ، فما ظنك بثواب من عند الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام» (٢١) .

إن ابن خلدون يقرر أن هذا الكتاب تدور عليه أحكام القضاء ، وأنها مستوفاة فيه ، ومن المعروف أن عدداً غير قليل من علماء المسلمين قد خصصوا لكتاب عمر هذا المئات من الصفحات شرحاً وتعليقاً ، باعتباره مصدراً أصيلاً لأصول القضاء فى الإسلام . وفى مقدمتهم ابن قيم الجوزية فى كتابه النفيس «أعلام الموقعين» .

(٧)

التزام الشريعة

ابن خلدون لا يخيد عن الصبغة الدينية فى نظام الحكم واتساع العمران ؛ لأن الصبغة الدينية الأصيلة حتى إذا لم تكن إسلامية فإن فيها ضمان العدل وتجنب الظلم

(٢١) المقدمة ص ٣٩٠ طبعة دار الكتاب اللباني ، ويراجع النص فى الأحكام السلطانية ص ٧١ ، ٧٢ طبعة مصطفى الباقى الحلبي ، وأعلام الموقعين ٩٠/١ ، ٩١ طبعة دار الكتب الحديثة .

الذى يؤذى المجتمعات ويخرب العمران ، ويسوق ابن خلدون في هذا المجال قصة الموبدان صاحب الدين عند الفرس مع كسرى بهرام بن بهرام الذى اقترن ذكره بكثرة الظلم للرعية ، تقول القصة : إن الملك بهرام سمع أصوات اليوم فسأل الموبدان عن معنى كلامها ، فقال له : إن يوماً ذكراً يروم نكاح أنثى ، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام ، فقبل شرطها ، وقال لها : إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية ، وهذا أسهل مرام ، حيثئذ تنبه الملك من غفلته ، وخلا بالموبدان وسأله عن مراده ، فقال الموبدان : أيها الملك ، إن الملك لا يتم عزّه إلا بالشرعية ، والقيام لله بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قوام للشرعية إلا بالملك ، ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل إلى الملك إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل ، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قِيماً وهو الملك ، وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمّارها ، وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال ، وأقطعها الخاشية والخدم وأهل البطالة ، فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع ، وسومحو في الخراج لقربهم من الملك ، ووقع الحيف على من بقى من أرباب الخراج وعمّار الضياع ، فانجلوا عن ضياعهم واخلوا ديارهم^(٢٢) .

فالشرعية عند ابن خلدون في أية صورة من صورها هي ضمان للعدالة بين الناس ، إذا ما تحققت تحقق بها عز الملك ، وعزّ الملك لا يتحقق إلا بالعمارة ، ولا سبيل إلى العمارة إلا بالعدل . وإن العدل عند ابن خلدون مفروض من رب العالمين ، مفروض على الملوك من غير المسلمين كالأكاسرة وغيرهم ، طبقاً لما هو مبين في المثال سالف الذكر ، ومن باب أولى فإن الصبغة الإسلامية في الحكم ، والعدل أساسها ، هي الأقرب إلى ذهن ابن خلدون ، والأشد وضوحاً في نظريته ، التى أحكم نسجها

(٢٢) المقدمة ص ٢٨٧ الطبعة الثالثة بيروت ، طبعة دار الكتاب اللبناني ص ٥٠٨ .

في إطار بنية إسلامية خالصة ، مدعمة بالآيات القرآنية ، ومحكمة بالأحاديث النبوية ، ومطبقة بأعمال الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من الأكفاء من خلفاء المسلمين .

وفي نطاق اهتمام ابن خلدون بالمجتمع الإنساني والعمران البشري الذي جعل النظام الإسلامي صبغة له ، يتحدث عن النبوات والرسالات ، وبالتالي عن الأنبياء والرسول ، ويخص محمداً ﷺ - باعتباره صاحب الشريعة التي يطبقها ابن خلدون على المجتمع الإنساني - بحديث جليل يتناول فيه جانباً من حياته قبل الرسالة التي لم تدنس بتقاليد الجاهلية ، والجانب الآخر يوضح كيف كان يتلقى الوحي في حديث فيه شمول وتفصيل^(٢٣) .

أما وإن الأنبياء والرسول أصحاب معجزات يجريها الله سبحانه على أيديهم ، فإن ابن خلدون يتناول بالبحث المعجزات والخوارق ويذكر مفاهيم المدارس الإسلامية لها ، من متكلمين ومعتزلة وأشعرية وحكماء وصوفية ، ثم يختم ابن خلدون حديثه فيها مقررّاً أن أعظم المعجزات على الإطلاق هو القرآن الكريم قائلاً : « اعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة - القرآن الكريم ، المنزل على نبيينا محمد ﷺ ؛ فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو بنفسه الوحي المدّعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده في عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله ﷺ : (ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إليّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة ، وهي كونها نفس الوحي ، كان الصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثير المصدق المؤمن ، وهو التابع والأمة »^(٢٤) .

(٢٣) المقدمة صفحات ٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ الطبعة الثالثة بيروت .

(٢٤) المقدمة ص ٩٥ .

نقول إن ابن خلدون صمم نظرية العمران أو المجتمع الإنساني على أنه مجتمع إسلامي الحكومة والرعية ، ولما كانت الحكومة هي التي توطن أركان الدولة والمجتمع فإن ابن خلدون يكاد يكون قد خصص المقدمة كلها - إلا في القليل - لهذا الأمر ، فقد مر بنا تقريره ضرورة أن يكون الحكم خلافة ، وأن الخلافة لحراسة الدين وسياسة الدنيا ، وكيف حدد نظام الحكومة ممثلاً في كتاب طاهر بن الحسين إلى ولده ، ونظام القضاء ممثلاً في كتاب عمر إلى أبي موسى ، ولكن ابن خلدون لا يقف بالحكومة الإسلامية عند هذا الحد ، وإنما يفرد فصلاً طويلاً لولاية العهد ، وهل هو جائز في الحكومة الإسلامية أو غير جائز ؟ وهل هو مفيد لنظام الحكم واستقراره أو العكس ؟ ويجري ابن خلدون في هذا المقام بحثاً نفسياً ينبع من درايته بالفقه واستنطاقه الأحكام واستعراضه أحداث التاريخ الإسلامي ، ومن الأمور الجديرة بالاهتمام أنه أقر ولاية عهد معاوية ليزيد ، ونفس الشيء مع كثير من بني أمية ، وامتد اجتاده في ذلك إلى صحة ولاية العهد التي أخذها كل من السفاح والمنصور والمهدي والرشيدي من بني العباس (٢٥) .

ويقدم ابن خلدون دراسات أيضاً عن المناصب في الدولة الإسلامية ، فيتحدث عن الشرطة ويقرر أنها وظيفة دينية ويقول : إنها كانت من الوظائف الشرعية على عهد العباسيين والأمويين بالأندلس ، والعبديين بمصر والمغرب ، ثم يحدد اختصاصات صاحب الشرطة (٢٦) .

ثم ينتقل ابن خلدون إلى الحديث عن وظيفة أخرى هي الحسبة ، ويقول « أما الحسبة فوظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين ، يعين لذلك من يراه أهلاً له ، فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ

(٢٥) المقدمة ص ٢١٠ وما بعدها .

(٢٦) للفتنة ص ٢٢٢ .

الأعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ويعزّر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة» (٢٧) .

وهناك مناصب أخرى اقتضت وجودها طيبة تطور نظام الحكم رأى ابن خلدون أن التعرف بها مكمل للشكل العام لحكومة المجتمع ، بل إن بعضها كان يرجع إلى عهود سابقة ، فتحدث عن الوزارة والحجابه وديوان الأعمال والجبايات ، وديوان الرسائل وغيرها من المناصب والشارات ، مثل قيادة الأساطيل والسرير والمنبر والسكة والخاتم والطرارز وما إلى ذلك من شارات الملك ولزومياته .

(٨)

ملاحح المجتمع الخلدوني إسلامية

ولما كان المجتمع الإسلامي الأصل هو مجتمع العلم والتعلم واقتناص الثقافة والسعى إلى المعرفة ، وأن المسلمين كانوا في مقدمة الشعوب في مختلف شئون المعرفة حين كانت أسبابهم معقودة إلى روح دينهم ، فإن ابن خلدون قد عمد في مجتمعه العمراني إلى الحديث المطول عن العلوم والمعارف . ولما كان الإسلام يدعو إلى العلم بشقيه : العلم الديني والعلم الدنيوي ، يعنى العلوم الشرعية والعلوم العقلية ، فإن ابن خلدون يطرز مقدمته بدراسات نفيسة عن العلوم التي هى ضرورة للمجتمع المسلم ، ويقسمها إلى علوم شرعية وعلوم عقلية ، ويخص كل علم بتعريف له يشجع على دراسته ويرغب في التعرف عليه . فأما العلوم الشرعية فهى علوم القرآن ، وعلوم الحديث ، وعلم الفقه ، وعلم الفرائض ، وعلم أصول الفقه ، وعلم الكلام ، وعلم التصوف ، وعلم تعبير الرؤيا ، وأما العلوم العقلية وأصنافها فهى العلوم العددية ، والعلوم الهندسية ، وعلم الهيئة ، وعلم المنطق ، والطبيعات ، وعلم الطب ، وعلم الفلاحة ، وعلم الإلهيات ، وعلم السحر والطلسمات ، وعلم الكيمياء .

ولما كان القرآن عربياً ، والرسول ﷺ عربياً ، وتعتبر اللغة العربية لهذا السبب لغة شريفة ، أو بعبارة أدق هي لغة الإسلام ، ولا يستطيع أحد الإحاطة بالإسلام وعلومه بدون إجادتها والتبحر فيها ، فقد أفرد ابن خلدون فصلاً طويلاً للحديث عن علوم اللسان العربى والتعريف بها ، وهى النحو ، وعلم اللغة-، وعلم البيان ، وعلم الأدب ، وانقسام الكلام إلى فني النظم والنثر ، وصناعة الشعر ، والموشحات والأزجال .

وفى مجال التربية والتعليم عقد ابن خلدون فصلاً ثلاثة ، أوضح فيها طرائق التعليم فى الآفاق الإسلامية ، وخص بها أهل المغرب ، وأهل الأندلس ، وأهل إفريقية ، وأهل المشرق ، ولقد أوضح الطريقة التى يتبعها كل قطر ، واستحسن منها طريقة أهل الأندلس ، على أنه شدد على ضرورة الابتداء مع الولدان بتعليم القرآن الكريم ؛ لأنه « شعار الدين الذى أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الحديث » (٢٨) .

ومن الطريف أن ما سطره ابن خلدون عن طريقة تعليم المشاركة للناشئة لم يخل من خطأ ؛ لأنه كتبه قبل رحلته إلى المشرق ، ولكنه كان حصيفاً فى احترازه حين استعمل عبارة « على ما يبلغنا » ثم أتبعها بعبارة « والذى ينقل إلينا » .

وابن خلدون من العلماء الذين لا يرون استعمال الشدة فى تربية الناشئة وتعليمهم ، بل يرى أنها ضارة ومؤدية إلى أخطار كثيرة ؛ لأن « من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق عن النفس فى انبساطها ، ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه » .

ويسلط ابن خلدون حديثه فى تربية الصغار وتعليمهم ، عامداً إلى شئ غير قليل

من تحليل نفسية من يتعرض للقسوة منهم ، مردداً قول عمر رضى الله عنه « من لم يؤديه الشرع لا أدبه الله » ويوضح ابن خلدون ما قصده عمر قائلاً : « حرصاً على صون النفوس من مذلة التأديب وعلماً بأن المقدار الذى عينه الشرع لذلك أملك له فإنه أعلم بمصلحته » (٢٩) .

ويتبنى ابن خلدون وجهة نظر الرشيد فى تربية الصغار ممثلة فى الحديث الذى وجهه إلى خلف الأحمر معلم ولده الأمين حين عهد به إليه . يقول ابن خلدون : « ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده الأمين ، فقال : يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه ، فصيرّ يدك مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السنن وبصّرّه بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمنع فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة » (٣٠) .

(٩)

نظرية العمران إسلامية المبتدأ والمنتهى

إن نظرية العمران فى ضوء ما سلف من القول إسلامية المبتدأ والمنتهى ؛ فإن المسحة الفقهية والنزعة الأصولية واضحتان فيها وضوحاً لا ينكره ذو عيّن ، وابن خلدون فقيه أصولى مجتهد ، وهو أستاذ مارس التدريس فى أرق جامعات زمانه من القرويين مغرباً إلى الأزهري مشرقاً ، وكانت دروسه إصلاً فى التفسير والحديث

(٢٩) المقدمة ص ٥٤٠ ، ٥٤١ .

(٣٠) المقدمة ص ٥٤١ .

والفقه والأصول والتربية والأدب ، وقد حرص في كل أفكاره التي عرفت بالنظريات فيما بعد على أن يدعم كلاً منها بما يؤكد إسلاميتها بآية قرآنية أو أكثر ، أو حديث شريف ، أو عمل مأثور لصحابي أو تابعي أو إمام .

ومن ناحية أخرى حرص ابن خلدون على أن يختم كل فصل من فصول المقدمة طال ذلك الفصل أو قصر بآية قرآنية أو أكثر ، أو بحديث نبوي شريف ، أو دعاء إلى الله بالسداد ، أو ابتهاج إلى ذاته العليا تقديساً وتمجيداً ، لقد تابعنا كل فصول المقدمة ووجدنا أن المفكر المسلم الكبير قد التزم هذا المنهج التزاماً ، ولا نكاد نستثني من ذلك إلا عدداً قليلاً من الفصول كان أصلاً قد طرزها بآيات قرآنية شريفة كأمثال تدعم فكره وتوضح رأيه

وحتى ندعم وجهة نظرنا فيما قررناه من أن نظرية العمران إسلامية الأصول والمنطق ، ولكي نرد على مزاعم من ذهب من الدارسين الغربيين إلى أن ابن خلدون يذكر خلال بحثه كثيراً من الآيات القرآنية دون أن يكون لذكرها علاقة جوهرية بتدليله من أمثال شमित وفيستدونك ، فقد اخترنا فصولاً من المقدمة متتابعة متواصلة بعضها في إثر بعض ؛ لكي نرى نهاية كل فصل كتبه ابن خلدون ، وكيف كان ختامه له ، ومدى العلاقة الجوهرية بين الفصل وخاتمته . وتلك هي الفصول :

- استفتاح المقدمة يختمه بهذا الابتهاج والتسبيح « وهو حسبنا ونعم الوكيل » .
- وهو مستمد من الآية القرآنية : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾^(٣١)
- فصل في فضل علم التاريخ ، يختمه بهذا الدعاء « والله الهادي إلى الصواب » .
- فصل في طبيعة العمران ، يختمه بهذا الدعاء والابتهاج « والله الموفق للصواب والمعين عليه » .

(٣١) سورة آل عمران الآية ١٧٧ .

- فصل في العمران البشرى ، يختتمه بهذا الدعاء والابتهال « والله ولى التوفيق والهداية » .

- فصل في قسط العمران من الأرض ، يختتمه بهذا الدعاء « والله الموفق » .

- فصل في أن الربع الشمالى من الأرض أكثر عمراناً ، يختتمه بهذه الآية الكريمة :

﴿إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (٣٢)

- فصل في المعتدل من الأقاليم والمنحرف ، يختتمه بهذا الابتهال « وهو المولى المنعم الرعوف الرحيم » .

- فصل في أثر الهواء في أخلاق البشر ، يختتمه بهذه الآية الكريمة :

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٣)

- فصل في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع ، يختتمه بهذا المعنى القرآنى :

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (٣٤)

- فصل في حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا ، يختتمه بهذه الآية الكريمة :

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٥)

- فصل في أن جيل العرب في الخلقة طبعى ، يختتمه بهذا التسييح والتمجيد « والله

سبحانه وتعالى أعلم » .

- فصل في أن البلدو أقدم من الحضر ، يختتمه بهذا التمجيد لله « والله أعلم » .

(٣٢) سورة آل عمران الآية ١٩٠

(٣٣) سورة البقرة الآية ٢١٣

(٣٤) سورة فصلت الآية ٥٤

(٣٥) سورة النور الآية ١٩

- فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الخير ، يختتمه بهذا التمجيد المقرون بالدعاء « والله سبحانه أعلم وبه التوفيق » .

- فصل في أن البدو أقرب إلى الشجاعة ، يختتمه بهذه الآية الكريمة :
﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ ﴾^(٣٦) .

- فصل في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفصلة للبأس ، يختتمه بهذا المعنى القرآني
« والله الحكيم الخبير » والأصل القرآني هو :
﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَفِيرُ ﴾^(٣٧) .

- فصل في أن سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العvisية ، يختتمه بهذا الدعاء
« والله الموفق للصواب » .

- فصل في أن العvisية إنما تكون بالالتحام بالنسب ، يختتمه بالدعاء والتمجيد المألوف
عند العلماء « والله سبحانه وتعالى أعلم » .

- فصل في أن الصريح من النسب إلخ ، يختتمه بهذا المعنى القرآني : « والله وارث الأرض ومن عليها » .

- فصل في اختلاط الأنساب كيف يقع ، يختتمه بهذا الدعاء والتمجيد للذات العلية
« والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه » .

- فصل في أن الرئاسة على أهل العvisية إلخ يختتمه بهذه الجملة القرآنية :
﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾^(٣٨) .

- فصل في أن البيت والشرف بالأصالة ، يختتمه بهذه الآية الكريمة :
﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٣٩) .

(٣٦) سورة آل عمران الآية ٤٧ .

(٣٧) سورة سبأ الآية ١ .

(٣٨) سورة الأنعام الآية ٧٣ .

(٣٩) سورة النور الآية ٣٥ ، ٦٤ ، وسورة الحجرات الآية ١٦ ، وسورة التغاين الآية ١١ .

- فصل في البيت والشرف للموالى إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم ، يختتمه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَكْرَمَكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقْنَاكَ ﴾^(٤٠) . ثم يردف بجملة تمجيد المولى وتكريم الرسول قائلاً : « والله ورسوله أعلم » .

- فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف ، يختتمه بالمعنى القرآنى : « والله يؤتى ملكه من يشاء » وهو مأخوذ من الآية القرآنية : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ نَشَاءٍ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ نَشَاءٍ ﴾^(٤١) .

- فصل في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط ، يختتمه بمجموعة من العبارات الابتدائية تتوسطها جملة قرآنية ، وذلك في قوله : « والله قادر على خلقه ، ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ﴾^(٤٢) . لا رب غيره .

- فصل في أن البوادى من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار ، يختتمه بجملتين قرآنيتين مجترأتين من آيتين كريمتين وذلك في قوله ، والله ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾^(٤٣) ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ﴾^(٤٤) .

- فصل في أن الملك والدولة إنما يحصلان بالقبيل والعصية ، يختتمه بعدة معاني قرآنية تتوسطها آية كريمة وذلك في قوله : « والله قادر على ما يشاء ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٤٥) .

وهو حسينا ونعم الوكيل . والأصل في الجملة الأخيرة الآية الكريمة :

﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾^(٤٦) .

(٤٠) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٤١) سورة آل عمران الآية ٢٦ .

(٤٢) سورة الرعد الآية ١٦ .

(٤٣) سورة الأنعام الآية ٦١ .

(٤٤) سورة الرعد الآية ١٦ .

(٤٥) سورة الأنعام الآية ١٠١ .

(٤٦) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

- فصل في أن الدعوة الدينية بغير عصبية لا تتم ، يختتمه بعدة ابتهالات لله سبحانه ، وأكثر من جملة في تمجيد ذاته قائلا : والله سبحانه أعلم وبه التوفيق لرب غيره ولا معبود سواه .

- فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب يختتمه بالآية الكريمة : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٤٧) .

- فصل في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها ، يختتمه بآيتين ، ثم تمجيد للذات العلية قائلا :

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ^(٤٨) ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴾ ^(٤٩) .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

- فصل في أحوال الموالى والمضطعين في الدول ، يختتمه بآيتين كريمتين هما :

﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٥٠) ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ ﴾ ^(٥١) .

- فصل في حقيقة الملك يختتمه بالآية الكريمة : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ ^(٥٢) .

- فصل في أن إرهاب الحد مضر بالملك ، يختتمه بالآية الكريمة :

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ ^(٥٣) .

- فصل في مذاهب الشيعة في حكم الإمامة يختتمه بجملة طويلة تضم آيتين كريمتين

وذلك في قوله : ﴿ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(٥٤) .

(٤٧) سورة آل عمران الآية ٩٧ .

(٤٨) سورة طه الآية ١١٤ .

(٤٩) سورة الأنبياء الآية ٨٣ .

(٥٠) سورة آل عمران الآية ٦٨ .

(٥١) متكررة في خواتم آيات كثيرة من سورة هود ٤ ، والروم ٥٠ ، والشورى ٩ ، والحديد ٢ ، وغيرها .

(٥٢) سورة الأنعام الآية ١٨ .

(٥٣) سورة الروم الآية ٥٤ .

(٥٤) سورة فاطر الآية ٨ .

إلى صراط مستقيم ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٥٥).

هكذا رأينا ابن خلدون يختتم كل فصل من فصول مقدمته بآية قرآنية أو أكثر ، وأحياناً يختتمه بحديث نبوى شريف ، هذا فضلاً عن الابتهالات إلى الذات الإلهية ، والتمجيدات للذات العلية في عبارات بليغة شتى ، وصيغ نورانية كثيرة ، وهو يلتزم في أكثر الخواتيم الجملة التى اصطلاح علماء المسلمين على قولها في نهاية كل رأى يدلون به تحوطاً من الخطأ ، وتواضعاً في السلوك ، وهى « الله أعلم » أو « والله ورسوله أعلم » أو « والله سبحانه وتعالى أعلم » .

لقد اخترنا عدداً من فصول المقدمة بالتتابع بلغ عددها ثلاثة وثلاثين فصلاً ، فوجدنا أن عدد الآيات القرآنية التى ختمها ابن خلدون بها بلغ أربعاً وعشرين آية ، وحديثاً نبوياً شريفاً ، وعدداً من الجمل ذات المعانى القرآنية ، وعدداً آخر من عبارات التمجيد الإلهى وصيغ الابتهال الربانى ، كل ذلك فضلاً عن الآيات القرآنية الكريمة الكثيرة التى يضمها ابن خلدون فصوله كأمثلة يسوقها ، وأدوات استشهدا يقدمها بين يدى القارئ . ولقد لاحظنا - مثلما يلاحظ أى قارئ يفهم العربية - أن الجمل أو الآيات القرآنية التى ختم بها ابن خلدون هذا الفصل أو ذاك من فصول المقدمة إنما اختارها بدقة وإحكام لكى تتناسب مع موضوع الفصل وفحواه ومغزاه ، وهو أمر من الوضوح بمكان لكل من يفهم اللغة العربية . نقول ذلك لأن عدداً من الباحثين الغربيين قد هالهم هذا الكم العظيم من الآيات القرآنية الذى تضمنته المقدمة من أمثال « دى بور » الذى يرى أن الدين لم يؤثر في آراء ابن خلدون العلمية ، أو « شميت » الذى يقرر أن الآيات القرآنية الكثيرة التى ذكرها ابن خلدون في خلال المقدمة ليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، وإنما يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن .

إن مثل هذه الأقوال يدحضها ذلك التناسق الذكي الذى صنعه ابن خلدون وهو يجانس بين الآيات القرآنية وموضوع دراسته ، حسن استشهاد وبراعة تلليل ، ودقة تمثيل .

لكأنما تنبأ ابن خلدون خلدون أن بعض دارسى أعماله سوف يعرفون فكره الإسلامى ، وينزعون به إلى منازع مضادة ، فحرص على أن يجعل مقدمته إسلامية الوجه ، قرآنية المبنى والتدليل ؛ ومن ثم فإننا نقرر فى ضوء ما سلف أن هذا المجتمع الإنسانى والعمران البشرى الذى وضع ابن خلدون أساسه ولبناته ، قد ربطه بالرباط الفكرى الإسلامى فى كل شعبه ، يستوى فى ذلك نظم الحكم والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية ، وسوف يصل إلى حكمنا هذا كل من يدرس ابن خلدون ومقدمته دراسة موضوعية واعية ، بغير ما أحكام سابقة أو غايات مستهدفة .

بقى أن نوضح أن ابن خلدون بنى نظريته فى العمران البشرى والاجتماع الإنسانى على علم التاريخ وأحداثه ، بعد تنقيتها من الزيف ، وتصويبها من الخطأ ، وتجريدها من الغلو ، من خلال منهج دقيق وضعه علماء الحديث الشريف هو علم الجرح والتعديل ؛ ومن ثم فإن المنهج التصحيحى الذى طبقه ابن خلدون فى دراسته للتاريخ هو منهج إسلامى أصيل ، غير متأثر فيه بهذا أو بذاك من فلاسفة اليونان ، ومنه انطلق إلى تصوّر وجهه ، انتهى به إلى نظريته فى العمران التى أوضحنا ركائزها الدينية وأصولها الإسلامية .